

الباطنية وغلاة المتصوفة

(بدعهم وتأويلاتهم من فصول كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي)

فصل

(ومنها) بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا عقل - يدعون فيها أنها هي المقصود والمراد ، لا ما يفهم العربي - مسندة عندهم إلى أصل لا يعقل . وذلك أنهم - فيما ذكر العلماء - قوم أرادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في أيديهم ، فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً ، فإرد ذلك في وجوههم ، وتعتمد اليهم أيدي الحكام - فصرفوا أعتابهم إلى التحاليل على ما قصدوا بأنواع من الخيل ، من جملة ما صرف لهم من الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة ، وإن الظواهر غير مرادة . فقالوا : كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية ، فهي أمثلة وموزاة لبواطن .

* *

فما زعموا في الشرعيات أن الجأزة مبادرة الداعي للمستجيب بإفشاء سرّ إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الفصل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى مجامعة البهيمة مقابحة من لا عهد له ولم يؤث شيئاً من صدقة النجدي - وهي مائة وتسعة عشر درهماً عندهم - قالوا : فلذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمنعول به ، وإلا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟

والاحتلام ان يسبق لسانه الى افشاء السر في غير محله، فعليه الغسل،
أي تجديد المعاهدة. والطهر هو التبري من اعتقاد كل مذهب سوى
متابعة الامام. والتميم الاخذ من المأذون الى أن يسعد بمشاهدة الداعي
والامام. والصيام هو الامساك عن كشف السر.

ولهم من هذا الافك كثير في الامور الالهية، وامور التكليف،
وامور الآخرة، وكله حوم على ابطال الشريعة جملة وتفصيلاً، اذ هم ثنوية
ودهرية وإباحية، منكرون للنبوة والشرائع والحشر والنشر والجنة والنار
والملائكة، - بل هم منكرون للربوبية. وهم المسمون بالباطنية. ^(١)

وربما تمسكوا بالحروف والاعداد بان الثقب في رأس الآدمي سبع،
والكواكب السيارة سبع، وايام الاسبوع سبع، فهذا يدل على أن دور
الأئمة سبعة، وبه يتم. وان الطوائف اربع، وفصول السنة اربع، فدل على
أن اصول الاربعة هي السابق والتالي الاكبران - عندهم - والناطق
والاساس. - وهما الامامان. - والبروج اثنا عشر، يدل على أن الحجب
اثنا عشر، وهم الدعاة، الى انواع من هذا القبل. وجميعها ليس فيه ما يقابل
بالرد، لأن كل طائفة من المبتدعة سوى هؤلاء، ربما يتمسكون
بشبهة تحتاج الى النظر فيها معهم. أما هؤلاء فقد دخلوا في الهذيان الربقة،
وصاروا عرضة للمز، وضحكة للعالمين. وانما ينسبون هذه الاباطيل الى
الامام المعصوم الذي زعموه، وإبطال الأئمة معلوم في كتب المتكلمين.

(١) اتسمت الباطنية الى عدة فرق يجمعهم القول بجعل ظواهر النصوص
غير مرادة، والذهاب في تأويلها مذاهب من التحكم لا تتفق مع اللغة في حجاز ولا
كناية. واتقول بامام معصوم، وقد يسمونه باسم آخر، ويحملونه بعد ذلك إلهاماً.
وأخر فرقهم الباطية البهائية

ولكن لا بد من نكته مختصرة في الرد عليهم .

فلا يخلو ان يكون ذلك عندهم ما من جهة دعوى بالضرورة وهو محال ، لأن الضروري هو ما يشترك فيه العقلاء علما وادراكا ، وهذا ليس كذلك .
واما من جهة الامام المعصوم بسماعهم منه لتلك التأويلات . فنقول لمن زعم ذلك : ما الذي دعاك الى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم سوى المعجزة ؟ وليس لا مامك معجزة ، فان قرآن يدل على ان المراد ظاهره ، لا ما زعمت .
فان قال : ظاهر القرآن رسول الى بواطن فيها الامام المعصوم ولم يفهمها الناس فتعلمناها منه . قيل لهم : من أي جهة تعلمتموها منه ؟ أبشادة قلبه بالعين ؟ أو بسماع منه ؟ ولا بد من الاستناد الى السماع بالاذن . فيقال : فامل لفظه ظاهر له باطن لم تفهمه ، ولم يطلعك عليه ، فلا يوثق بما فهمت من ظاهر لفظه . فان قال : صرح بالمعنى . وقال : ما ذكرته ظاهر لا رمز فيه ، او : واما ظاهره . قيل له : وماذا عرفت قوله انه ظاهر لا رمز فيه ، بل انه كما قال ؟ اذ يمكن أن يكون له باطن لم تفهمه ايضا ، حتى لو حلف بالطلاق الظاهر انه لم يقصد الا الظاهر ، لاحتمال أن يكون في طلاقه رمز هو باطنه وليس مقتضى الظاهر . فان قال : ذلك يؤدي الى حسم باب التفهيم . قيل له : فانتم حسمتموه بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فان القرآن دأب على تقرير الوحدانية ، والجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر ، والانباء ، والوحي ، والملائكة ، مؤكداً ذلك كله بالقسم . واتم تقولون : ان ظاهره غير مراد وان تحته رمزا . فان جاز ذلك عندهم بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة وسر له في الرمز ، جاز بالنسبة الى معصومكم أن يظهر لكم خلاف ما يضمرة لمصلحة وسر له فيه ، وهذا لا محيص لهم عنه .



قال أبو حامد الغزالي رحمه الله : ينبغي أن يعرف الإنسان رتبة هذه الفرقة هي أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال، إذ لا تجد فرقة تنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه التي هي الباطنية . إذ مذهبها إبطال النظر ، وتغيير الالفاظ عن موضوعها بدعوى الرمز . وكل ما يتصور أن تنطق به الساتهم فاما نظر أو نقل . أما النظر فقد ابطأه . وأما النقل فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه . فلا يبقى لهم مقتضى . والتوفيق بيد الله .



وذكر ابن العربي في العواصم مأخذاً آخر في الرد عليهم أسهل من هذا . وقال أنهم لا قبل لهم به - وهو أن يساط عليهم في كل ما يدعونه السؤال « بكم » خاصة ، فكل من وجهت عليه - منهم سقط في يده . وحكى في ذلك حكاية ظريفة يحسن مودة بها ههنا . وتصور المذهب كاف في ظهور بطلانه ، إلا أنه مع ظهور فساد وبعده عن الشرع قد اعتمده طوائف وبنوا عليه بدعافحشة (منها) مذهب المهدي المغربي . فانه عد نفسه الامام المنتظر ، وانه معصوم حتى ان من شك في عصمته أو في أنه المهدي المنتظر فهو كافر .

وقد زعم ذووه انه ألف في الامامة كتاباً ذكر فيه أن الله استخلف آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام ، وان مدة الخلافة ثلاثون سنة ، وبعد ذلك فرق واهواء وشيع مطاع ، وهوى متبع ، وأعجاب كل ذي رأي برأيه ، فلم يزل الامر على ذلك ، والباطل ظالم والحق

كامن ، واللم مرفوع - كما اخبر عليه الصلاة والسلام - والجل ظاهر ، ولم يبق من الدين الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، حتى جاء الله بالامام فاعاد الله به الدين - كما قال عليه الصلاة والسلام « بدئ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدئ فطوبى للغرباء » وقال : ان طائفتهم الغرباء ، زعماء من غير برهان زائد على الدعوى . وقال في ذلك الكتاب : جاء الله بالهدي ، وطاعته صافية نقية ، لم ير مثله قبل ولا بعد ، وان به قامت السموات ، والارض به تقوم ، ولا ضده ، ولا مثل ، ولا ند . وكذب ، تعالى الله عن قوله . وهذا كما نزل احاديث الترمذي وابي داود في الفاطمي على نفسه وانه هو بلا شك .

واول اظهره لذلك انه قام في اصحابه خطيبا فقال : الحمد لله الفاعل لما يريد ، القاضي لما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على النبي البدر رب المهدي ، يملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وازيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الاقصى ، وزمانه آخر الأزمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء ، وامتألت الارض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل . يشير الى ما جاء في احاديث الفاطمي .

فلما فرغ بادر اليه من اصحابه عشرة . فقالوا : هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فأتى المهدي . فبايعوه على ذلك . وحدث في دين الله احداثا كثيرة زيادة الى الاقرار بانه المهدي المداوم ، والتخصيص بالعصمة . ثم وضع ذلك في الخطب ، وضرب في السكك ، بل كانت تلك الكلمة عندهم

ثالثة الشهادة . فمن لم يؤمن بها أو شك فيها ، فهو كافر كسائر الكفار .
وشرع القتل في مواضع لم يضعه الشرع فيها . وهي نحو من ثمانية عشر
موضعا . كترك امتثال امر من يستمع امره ، وترك حضور مواعظه
ثلاث مرات ، والمداينة اذا ظهرت في احد قتل ، واشياء كثيرة .

وكان مذهبه البدعة الظاهرية ، ومع ذلك فابتدع اشياء ، كوجوه
من الثوب ، اذ كانوا ينادون عند الصلاة « بتما صاليت الاسلام » و « بقيام
تا صاليت » و « سر دين » و « باردي » و « واصبح ولله الحمد » وغيره .
فجرى العمل بجميعها في زمان الموحدين . وبقي اكثرها بعد ما انقرضت
دولتهم . حتى اني ادركت بنفسني في جامع غرناطة الاعظم الرضا عن الامام
المعصوم . المهدي المعلوم ، الى أن أزيلت وبقيت اشياء كثيرة غفل
عنها أو انقضت .

وقد كان السلطان ابو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد
المؤمن بن علي منهم . ظهر أنه قبح ما هم عليه من هذه الابتداعات . فامر -
حين استقر بمراكش - خليفته بازالة جميع ما ابتدع من قبله ، وكتب بذلك
رسالة الى الاقطار يأمر فيها بتغيير تلك السنة ، ويوصي بتقوى الله
والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وأنه قد نبذ الباطل واظهر الحق ، وان
لا مهدي الا عيسى ، وان ما ادعوه انه المهدي بدعة ازلها ، واسقط اسم من
لا ثابت عصمته .

ودكر أن اباه المنصور هم بان يصدع بما به صدع ، وان يرفع الحرف
الذي رفع ، فلم يساعد الا جل لذلك . ثم لما مات واستخلف ابنه ابو محمد
عبد الواحد الملقب بالرشيدي ، وفد اليه جماعة من اهل ذلك المذهب المنسبين

بالموحدين ، قفّلتوا منه في الذروة والفارب ، وضمنوا على انفسهم الدخول تحت طاعته ، والوقوف على قدم الخدمة بين يديه ، والمدافعة عنه بما استطاعوا ، لكن على شرط ذكر المهدي وتخصيصه بالعصمة في الخطبة والمحاطبات ، ونقش اسمه الخاص في السكك ، واعادة الدعاء بعد الصلاة ، والنداء عليها « بتاصيلت الاسلام » عند كمال الاذان و « بتقام تاصيلت » وهي اقامة الصلاة ، وما اشبه ذلك من « سودرين » و « وقادري » و « اصبح ولله الحمد » وغير ذلك .

وقد كان الرشيد استمر على العمل بما رسم ابوه من ترك ذلك كله ، فلما اتدب الموحدون الى الطاعة اشترطوا اعادته مترك ، فاسعفوا فيه . فلما احتلوا منازلهم اياما ولم يعد شيء من تلك العوائد ، ساءت ظنونهم ، وتوقعوا انقطاع ما هو عمدهم في دينهم ، وبلغ ذلك الرشيد ، فجدد تأنيبهم باعادتها .

قال المؤرخ : فيا لله ! ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح لسماع تلك الامور ، وانطلقت السنن بالدعاء تخليفتهم بالنصر والتأييد ، وشملت الافراح فيهم الكبير والصغير . وهذا شأن صاحب البدعة ، فلن يسر باعظم من انتشار بدعته واظهارها (ومن يرد الله فتنه فلن يملك له من الله شيئا) وهذا كله دائر على القول بالامامة والعصمة الذي هو رأي الشيعة .

فصل

(ومنها) رأي قوم التنالي في تعظيم شيوخهم ، حتى اُلقوا بهم بما لا يستحقونه . فالمقتصد منهم يزعم أنه لا ولي لله اعظم من فلان ، وربما

اغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة الا هذا المذكور . وهو باطل محض ، وبدعة فاحشة ، لأنه لا يمكن أن يبلغ المتأخرون ابداً مبلغ المتقدمين . فغير القرون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ثم الذين يلونهم ، وهكذا يكون الامر ابداً الى قيام الساعة . فانوى ما كان اهل الاسلام في دينهم واعمالهم وقيمتهم واحوالهم في اول الاسلام . ثم لا زال ينقص شيئاً فشيئاً الى آخر الدنيا . لكن لا يذهب الحق جملة ، بل لا بد من طائفة تقوم به وتعتقده . وتعمل بمقتضاه على حسبهم في ايمانهم . لا ما كان عليه الاولون من كل وجه ، لانه لو أتق احد من المتأخرين وزن احد ذهباً ما بلغ مدّاً أحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصيفه . واذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شعب الايمان ، بشهادة التجربة المعادية .

ولما تقدم اول الكتاب انه لا يزال الدين في نقص فهو اصلي لا شك فيه . وهو عند اهل السنة والجماعة . فكيف يتقدم بعد ذلك في انه ولي اهل الارض ؟ وليس في الأمة ولي غيره ؟ لكن الجمل الغالب ، والغالو في التظيم ، والتمصب للنحل ، يؤدي الى مثله أو أعظم منه . والمتوسط يزعم انه مساو للنبي صلى الله عليه وسلم ، الا انه لا يأتيه الوحي . بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم ، الحاملين لطريقتهم في زعمهم ، نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه . والغالى ^(١) يزعم فيه أشنع من هذا ، كما ادعى اصحاب الحلاج في الحلاج .

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « والغالى »

وقد حدثني بعض الشيوخ أهل العدالة والصدق في النقل انه قال :
 اقيت زمانا في بعض القرى البادية ، وفيها من هذه الطائفة المشار اليها
 كثير - قال - فخرجت يوما من منزلي لبعض شأني ، فرأيت رجلين منهم
 قاعدين ، فاتهمتهما يتحدثان في بعض فروع طريقتهما ، فقربت منهما
 على استخفاء لأسمع من كلامهم ، - إذ من شأنهم الاستخفاء بأسرارهم -
 فتحدثا في شيخهم وعظم منزلته ، وانه لا أحد في الدنيا مثله ، وطربا لهذه
 المقابلة طربا عظيما ، ثم قال أحدهما للآخر : أتحب الحق ؟ هو النبي . قال :
 نعم هذا هو الحق . قل المخبر : فقلت من ذلك المكان فأرا أن يصيبني
 معهم قارعة .

وهذا نمط الشيعة الامامية . ولولا الغلو في الدين والتكالب على نصر
 المذهب ، والتهالك في محبة المبتدع ، - لما وسع ذلك عقل احد ، ولكن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر
 وذراعا بذراع » الحديث . فمؤلا خلوا كما غات النصارى في عيسى عليه
 السلام . حيث قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم . - فقال : الله تعالى
 (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق . ولا تتبعوا أهواء قوم قد
 ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل) وفي الحديث « لا
 تطروني كما طرت النصارى عيسى بن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله » .
 ومن تأمل هذه الاصناف وجد لها من البدع في فروع الشريعة
 كثيرا ، لأن البدعة اذا دخلت في الاصل سهلت مداخلتها الفروع .

فصل

واضعف هؤلاء احتجاجا قوم استندوا في أخذ الاعمال إلى المقامات ، وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلانا الرجل الصالح ، فقال لنا : اتركوا كذا ، واعملوا كذا . ويتفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين ^(١) . رسم التصوف ، وربما قال بعضهم : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال لي كذا وامرني بكذا ، فيعمل بها ويتركها معرضا عن الحدود الموضوعة في الشريعة ، وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الانبياء لا يحكم بها شرعا على حال الا ان تعرض على ما في ايدينا من الاحكام الشرعية ، فان سوغتها عمل بمقتضاها ، والا وجب تركها والاعراض عنها ، وانما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة . وأما استفادة الاحكام فلا . كما يحكى عن الكتاني رحمه الله قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقلت : ادع الله ان لا يميت قلبي . فقال « قل كل يوم اربعين مرة يا حي يا قيوم ، لا اله الا انت » فهذا كلام حسن لا اشكال في صحته ، وكون الذكر يحيي القلب صحيح شرعا . وفائدة الرؤيا التنبيه على الخير ، وهو من ناحية البشارة . وانما يبقى الكلام في التحديد بالاربعين ، واذا لم يوجد على اللزوم استقام .

وعن ابي يزيد البسطامي رحمه الله ، قال : رأيت ربي في المنام ، فقلت : كيف الطريق اليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال . وشأن هذا الكلام من الشرع موجود ، فالعمل بمقتضاه صحيح ، لانه كالتنبيه لموضع الدليل ،

(١) تمرس بالشيء احتك به ، وتمرس بدينه تلعب به ، وعبت كما يعبت البعير ، والمراد بهم هنا المتقدمون للصوفية في رسومهم الظاهرة دون اخلاقهم واعمالهم

لأن ترك النفس معناه ترك هواها باطلاق ، والوقوف على قدم العبودية . والآيات تدل على هذا المعنى ، كقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى) وما أشبه ذلك . فلو رأى في النوم قائلا يقول : ان فلانا سرق فأقطعه ، أو عالم فأسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحدّه ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له العمل حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، والا كان عاملا بغير شريعة ، اذ ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي .

ولا يقال : إن الرؤيا من اجزاء النبوة ، فلا ينبغي أن تهمل . وأيضا إن المخبر في المنام قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قد قال « من رآني في النوم فقد رآني حقا ، فإن الشيطان لا يتمثل بي » واذا كان : . . . فأخباره في النوم كأخباره في اليقظة .

لانا نقول : ان كانت الرؤيا من اجزاء النبوة فليست اليها من كمال الوحي ، بل جزء من اجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه ، بل انما يقوم مقامه في بعض الوجوه ، وقد صرفت الى جهة البشارة والندارة ، وفيها كاف ^(١)

وأیضا فان الرؤيا التي هي جزء من اجزاء النبوة من شرطها ان تكون صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما ينظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأیضا فهي منقسمة الى الحلم ، وهو من الشيطان ، والى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض اخلاط ، فتتبعين الصالحة حتى

يحكم بها وتترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك ان يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منهي عنه بالاجماع .

يحكي ان شريك بن عبد الله القاضي دخل على المهدي ، فلما رآه قال : علي بالسيف والنطع . قال : ولم يا امير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني ، فقصصت رؤياي على من عبرها ، فقال لي : يظهر لك طاعة ويضمير معصية . فقال له شريك : والله ما رؤياك برؤيا ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبرك يوسف الصديق عليه السلام ، فبالاحلام الكاذبة تضرب اعناق المؤمنين ؟ فاستعجب المهدي ، وقال : اخرج عني . ثم صرفه وابعده .

وحكي الغزالي عن بعض الأئمة انه افتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن ، فراجع فيه ، فاستدل بان رجلاً رأى في منامه ابليس قد اجتاز باب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلتها ؟ فقال : اغتاني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن ، فقام ذلك الرجل فقال : لو افتى ابليس بوجوب قتلي في اليقظة هل تقلدونه في فتواه ؟ فقالوا : لا ! فقال : قوله في المنام لا يزيد على قوله في اليقظة .

وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الراي بالحكم . فلا بد من النظر فيها ايضاً ، لأنه اذا اخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وان اخبر بمخالف ، فيحال ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يفسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته ، لان الدين لا يتوقف استقراره

(المنارج ٤ م ١٧) حديث « من رآني في النوم » وتفسيره بين رؤيته ٢٨٥

بعد موته على حصول المراتي النومية ، لأن ذلك باطل بالاجماع . فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : ان رؤياه غير صحيحة ، اذ لو رآه حقاً لم يخبره بما يخالف الشرع .

لكن يبقى النظر في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من رآني في النوم فقد رآني » وفيه تأويلان : احدهما ما ذكره ابن رشد اذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما تحكم بهذه الشهادة ؟ فانها باطلة . فاجاب بانه لا يحل له ان يترك العمل بتلك الشهادة ، لان ذلك ابطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ، وذلك باطل لا يصح أن يعتقد ، اذ لا يعلم الغيب من ناحيتها الا الانبياء الذين رؤياهم وحي ، ومن سواهم انما رؤياهم جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله « من رآني فقد رآني حقاً » ان كل من رأى في منامه انه رآه فقد رآه حقيقة . بدليل ان الراي قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الراي على صفة ، وغيره على صفة اخرى . ولا يجوز أن تختلف صور النبي صلى الله عليه ولا صفاته . وانما معنى الحديث « من رآني على صورتي التي خلقت عليها . فقد رآني ، اذ لا يتمثل الشيطان بي » اذ لم يقل : من رأى انه رآني ، فقد رآني . وإنما قال : من رآني فقد رآني . واني لهذا الراي الذي رأى انه رآه على صورته انه رآه عليها ؟ وان ظن انه رآه ، ما لم يعلم ان تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد الى معرفته .

فهذا ما نقل عن ابن رشد . وحاصله يرجع الى ان المرئي قد يكون

غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وان اعتقد الرائي انه هو

والتأويل الثاني يقوله علماء التعمير : ان الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم . فيشير له الى رجل آخر : هذا فلان النبي ، وهذا الملك الفلاني ، أو من اشبه هؤلاء ممن لا يمثل الشيطان به . فيوقع اللبس على الرائي بذلك وله علامة عندهم . واذا كان كذلك امكن ان يكلمه المشار اليه بالامر والنهي غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي انه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون كذلك ، فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما اخرى ^(١) هذا الضرب أن يكون الامر أو النهي فيه مخالفاً لكمال الاول ، حقيق بان يكون فيه موافقا ، وعند ذلك لا يبقى في المسئلة اشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لا مكان اختلاط احد القسمين بالآخر . وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الاحكام الاضعيف المنة . نعم يأتي المرئي تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها اصلاً ، وهو الاعتدال في اخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله اعلم .

فصل

وقد رأينا أن نختم الكلام في الباب بفصل جمع جملة من الاستدلالات المتقدمة ، وغيرها في معناها ، وفيه من نكت هذا الكتاب جملة اخرى ، فهو مما يحتاج اليه بحسب الوقت والحال ، وان كان فيه طول ولكنه

يخدم ما نحن فيه ان شاء الله تعالى .

وذلك انه وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء ، يزعمون انهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون في بعض الليالي يأخذون في الذكر الجمهوري على صوت واحد ، ثم في الفناء والرقص ، الى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، يرسمون برسم الشيوخ الهداة الى سلوك ذلك الطريق : هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟

فوقع الجواب بان ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة لطريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطريقة اصحابه والتابعين لهم باحسان ، فنفع الله بذلك من شاء من خلقه .

ثم ان الجواب وصل الى بعض البلدان ، فقامت القيامة على العاملين بتلك البدع ، وخافوا اندراس طريقتهم ، وانقطاع اكلامهم بها ، فارادوا الانتصار لانفسهم ، بعد أن راموا ذلك بالانتساب الى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت في الانقطاع الى الله ، والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال ، لكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فانهم كانوا بنواختهم على ثلاثة اصول : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاخلاق والافعال ، واكمل الحلال ، واخلاص النية في جميع الاعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم في هذه الاصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم وكان من قدر الله ان بعض الناس سأل بعض شيوخ الوقت في مسألة تشبه هذه ، لكن حسن ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفى على غير المتأمل . فاجاب عفا الله عنه على مقتضى ظاهرها من غير تعرض الى ما هم عليه من البدع والضلالات ، ولما سمع بعضهم بهذا الجواب ارسل

به الى بلدة اخرى ، فأتى به فرحل الى غير بلده ، وشهر في شيعته أن بيده حجة لطريقتهم تقهر كل حجة ، وأنه طالب للمناظرة فيها ، فدعي لذلك فلم يقم فيه ولا قعد ، غير أنه قال : ان هذه حجتي ، وألقي بالبطاقة التي بخط الحبيب ، وكان هو ومحبيه ^(١) وأشياعه يطايرون بها فرحاً ، فوصلت المسئلة الى غرناطة ، وطلب من الجميع النظر فيها . فلم يسمع احد له قوة على النظر فيها الا اول ^(٢) أن يظهر وجه الصواب فيها الذي يدان الله به لأنه من النصيحة التي هي الدين القويم ، والصراط المستقيم

وانص خلاصة السؤال : ما يقول الشيخ فلان في جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي الفاضلة ، يقرؤون جزءاً من القرآن ، ويستمعون من كتب الوعظ والرقائق ما امكن في الوقت ، ويذكرون الله بأنواع التهليل والتسبيح والتقديس ، ثم يقوم من بينهم قوال يذكّر شيئاً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبقى من السماع ما تروق النفس اليه وتشتاق سماعه من صفات الصالحين ، وذكر آلاء الله ونعمائه ، ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية ، والمعاهد النبوية ، فيتواجدون اشتياقاً لذلك ، ثم يأكلون ما حضر من الطعام ، ويحمدون الله تعالى ، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبتهلون بالادعية الى الله في صلاح أمورهم ، ويدعون للمسلمين ولائهم ويفترقون .

فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر ؟ أم يمتنعون وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المحبين الى منزله بقصد التبرك ، هل يجيبون دعوته ويجتمعون على

(١) كذا ولعلها « ومحبه » أو « ومحبوه » (٢) لفظ الاول لا يظهر له معنى هنا والظاهر ان المقام مقام الاستثناء وان العبارة ربما دخل فيها التحريف والسقط

الوجه المذكور أم لا ؟

فاجاب بما محصوله : مجالس تلاوة القرآن وذكر الله هي رياض الجنة . ثم اتى بالشواهد على طلب ذكر الله . واما الانشادات الشعرية . فانما الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي القرآن في شعراء الاسلام (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) وذلك ان حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعبا لما سمعوا قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) الآيات . بكوا عند سماعها فنزل الاستثناء ، وقد أنشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقت نفسه الكريمة وذرفت عيناه لأبيات اخت النضر ، لما طبع عليه من الرأفة والرحمة . واما التواجد عند السماع ، فهو في الاصل رقة النفس ، واضطراب القلب ، فيتأثر الظاهر بتأثر الباطن . قال الله تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي اضطربت رغباً أو رهباً . وعن اضطراب القلب يحصل اضطراب الجسم ، قال الله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) الآية . وقال (ففروا الى الله) فانما التواجد رقة نفسية ، وهزة تليسية ، ونهضة روحانية . وهذا هو التواجد عن وجد ، ولا يسمع فيه تكبر من الشرع . وذكر السامي انه كان يستدل بهذه الآية على حركة الوجد في وقت السماع . وهي (وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا) الآية . وكان يقول : ان القلوب مربوطة بالكوت ، حركتها انوار الذاكر ، وما يرد عليها من فنون السماع .

ـ ووراء هذا تواجد لا عن وجد ، فهو مناط الدم ، لمخالفة ما ظهر

لما بطن . وقد يترتب ^(١) فيه الأمر عند القصد لاستنهاض العزائم ، وأعمال الحركة في لحظة القلب النائم « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فبأكوا » ^(٢) ولكن شتان ما بينهما .

وإما من دعا طائفة إلى منزله فتجابه دعوته ، وله في ذلك قصده ونيته . فهذا ما ظهر تقيده على مقتضى الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وأما الأعمال بالنيات ، انتهى ما قيده .

فكان مما ظهر لي في هذا الجواب : أن ما ذكره في مجالس الذكر صحيح إذا كان على حسب ما اجتمع عليه السلف الصالح ، فأنهم كانوا يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم ، حتى يتعلم بعضهم من بعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فهو مجلس من مجالس الذكر التي جاء في مثاها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وهو الذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله .

وكذلك الاجتماع على الذكر فإنه اجتماع على ذكر الله . ففي رواية أخرى أنه قال « لا يعمد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة » الحديث المذكور . لا الاجتماع للذكر على صوت واحد ، وإذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله ، أو التذاكر في العلم أن كانوا علماء ، أو كان فيهم عالم فجلس

(١) لعله « يترتب » (٢) لعله أراد حديث « أتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فبأكوا » فاقبسه بالمعنى ، وهو في سنن ابن ماجه من حديث سعد ابن أبي وقاص بسند جيد

اليه متعامون ، أو اجتموا يذكر بعضهم بعضاً بالعمل بطاعة الله والبعد عن معصيته . وما أشبه ذلك مما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، وعمل به الصحابة والتابعون . فهذه المجالس كلها مجالس ذكر وهي التي جاء فيها من الاجر ما جاء .

كما يحكى عن ابن ابي ليلى انه سئل عن القصص . فقال : ادركت . اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يجلسون ويحدث هذا بما سمع وهذا بما سمع . فاما أن يجلسوا خطيباً فلا . وكان كالذى نراه معمولاً به في المساجد من اجتماع الطلبة على معلم يقرئهم القرآن أو علماً من العلوم الشرعية . أو تجتمع اليه العامة فيعلمهم امر دينهم ، ويذكرهم بأسه ، ويبين لهم سنة فيهم ليعملوا بها ، ويبين لهم المحدثات التي هي ضلالة ليحذروا منها ، ويحجبوا مواطنها والعمل بها .

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهي التي حرّمها الله أهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا انهم سلكوا طريق التصوف . وقل ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة الا على اللحن ، فضلاً عن غيرها ، ولا يعرف كيف يتعبد ، ولا كيف يستنجي أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة . وكيف يعلمون ذلك وهم قد حرّموا مجالس الذكر التي تنشأها الرحمة ، وتنزل فيها السكينة ، وتحف بها الملائكة ؟ فبانطاس هذا النور عنهم ضلوا ، فاقتدوا بجهال امثالهم ، واخذوا يقرؤن الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم ، لا على ما قال اهل العلم فيها . فخرجوا عن الصراط المستقيم ، الى ان يجتمعوا ويقرأ احدهم شيئاً من القرآن يكون حسن الصوت طيب النغمة جيد التلحين تشبه قراءته القراء المندسوم ، ثم يقولون

تعالوا نذكر الله . فيرفعون أصواتهم يشون ذلك الذكر مداولة ، طائفة في جهة ، وطائفة في جهة أخرى ، على صوت واحد يشبه الغناء ، ويرغمون أن هذا من مجالس الذكر المندوب إليها ، وكذبوا . فإنه لو كان حقاً لكان السلف الصالح أولى بإدراكه وفهمه والعمل به ، والأفان في الكتاب أو في السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهرًا عاليًا ؟ وقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين) والمعتدون في التفسير هم الرافضون أصواتهم بالدعاء

وعن أبي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أربعوا على أنفسكم ، انكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، انكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » وهذا الحديث من تمام تفسير الآية ، ولم يكونوا رضي الله عنهم يكبرون على صوت واحد ، ولكنه نهى عن رفع الصوت ليكونوا للآية متمثلين . وقد جاء عن السلف أيضاً النهي عن الاجتماع على الذكر ، والدعاء بالهيئة التي يجتمع عليها هؤلاء المبتدعون . وجاء عنهم النهي عن المساجد المتخذة لذلك ، وهي الربط التي يسمونها بالصفة . ذكر من ذلك ابن وهب وابن وضاح وغيرهما ما فيه كفاية لمن وفقه الله .

فالخاصل من هؤلاء أنهم حسنوا الظن بأنهم فيما هم عليه مصيبون ، واسأوا الظن بالسلف الصالح أهل العمل الراجح الصريح ، وأهل الدين الصحيح . ثم لما طالبهم لسان الحال بالحجة أخذوا كلام الحجب بهم لا يعلمون ، وقولوه ما لا يرضى به العلماء ، وقد بين ذلك في كلام آخر إذ شئنا عن ذكر فقراء زماننا ، فاجاب بأن مجالس الذكر المذكورة في الأحاديث أنها

هي التي تلي^(١) فيها القرآن ، والتي يُتلى فيها العلم والدين ، والتي تفر
بالعلم والتذكير بالآخرة والجنة والنار . كجالس سفيان الثوري والحسن
وابن سيرين ، واضرابهم .

اما مجالس الذكر اللساني فقد صرح بها في حديث الملائكة
السياحين ، لكن لم يذكر فيه جهراً بالكلمات ، ولا رفع اصوات ، وكذلك
غيره . لكن الاصل المشروع اعلان الفرائض واخفاء النوافل ، واتى
بالآية وبقوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفياً) ومحدث « اربعوا على
انفسكم » - قال - : وفقراء الوقت قد تخيروا بآيات ، وتميزوا باصوات ،
هي الى الاعتداء ، اقرب منها الى الاقتداء ، وطريقتهم الى اتخاذها مأكلة
وصناعة ، اقرب منها الى اعتدادها قرية وطاعة .

انتهى معناه على اختصار اكثر الشواهد . وهي دليل على ان فتواه
المتبع بها ليس معناها ما رام هؤلاء المبتدعة . فانه سئل في هذه عن فقراء
الوقت ، فاجاب بدمهم ، وان حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا يتناول
علمهم . وفي الاولى انما سئل عن قوم يجتمعون لقراءة القرآن ، أو لذكر
الله . وهذا السؤال يصدق عن قوم يجتمعون مثلاً في المسجد فيذكرون
الله ، كل واحد منهم في نفسه أو يتلو القرآن نفسه ، كما يصدق على مجالس
المعلمين والمتعلمين ، وما اشبه ذلك مما تقدم التنبيه عليه ، فلا يسمعه وغيره من
العلماء الا ان يذكر محاسن ذلك والثواب عليه ، فلما سئل عن اهل البدع
في الذكر والتلاوة بين ما ينبغي أن يعتمد عليه الموفق ، ولا توفق الا
بالله العلي العظيم . اه المراد منه

(١) في الاصل « بختلا » هكذا ، فصحتها ناسخ الورق الذي نطبع عنه فجعلها
« بختلى » وكلاهما غلط

فصل*

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين (منزلة التوكل)

قال الله تعالى (ونذلي الله فتوكاوا ان كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال عن اوليائه - ربنا عليك توكلنا وابليك انبنا وابليك المصير - وقال - قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا - وقال رسوله - فتوكل على الله الملك على الحق المبين - وقال - وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا - وقال - وتوكل على الحي الذي لا يموت ورجح بحمده - وقال - فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين - وقال عن ابياته ورسوله - وما لنا ألا نتوكل على الله ؟ (١) الآية - وقال عن اصحابه - الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا واثابهم الله ونعم الوكيل - وقال - اما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، فزادتهم ايمانهم وآياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) والقرآن مملوء من ذلك وفي الصحيحين في حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ، ولا يطمهرون ، ولا يكتفون ، وعلى ربهم يتوكلون ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم أعوذ بعزتك ، لا اله الا انت ان تضلني ، انت الحي الذي لا تموت ، والجن والانس يموتون » وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا « او انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خفاصا وتروح بطانا » وفي السنن عن انس رضي الله عنه

« فزوج من الجزء الثاني من كتاب (مدارج السالكين . بين منازل « اياك نعبد وإياك نستعين » (١) زاد في البعدانية من الآية قوله تعالى « وقد هدانا سبلنا »

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال - يعني اذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله ، ولا حول (١) ولا قوة الا بالله ، يقال له : هديت ووقيت (٢) وكفيت ، فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل هدي وكفي ووقي ؟ »
التوكل نصف الدين ، ونصفه الثاني الاقامة ، فان الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والاقامة هي العبادة ، ومنزلة أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معصومة بالتأويلين لسمة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقيته من المؤمنين والكفار والابرار والفساد ، والطير والوحش والبهائم ، فأهل السموات والارض - المكافون وغيرهم - في مقام التوكل ، وان تباين متعلق وكلهم . فاولياؤه وخاصة يتوكلون عليه في حصول ما يرضيه منهم ، وفي اقامته في خلق ، فيتوكلون عليه في الايمان ونصرة دينه ، واعلاء كلمته ، وجهاد اعدائه ، وفي محابه وتنفيذ اوامره . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق او عافية او نصر على عدو او زوجة او ولد ، ونحو ذلك . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في حصول الاثم والفواحش . فان اصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا الا باستمائتهم بالله ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم (٣) أقوى من توكل كثير من اصحاب الطاعات ، ولهذا يلغون أنفسهم في المتالف والممالك معتمدين على الله ان يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم ، فافضل التوكل في الواجب (اعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس) ، واوسعها وانفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، او في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الانبياء في اقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الارض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس بعد في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول المالك ، ومتوكل في حصول رغبة . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله ، فان كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وان كان

(١) في نسخة « ولا حول » وفي البغدادية سقط الواو (٢) وفيها « وكفيت ووقيت »

(٣) في الحجازية « توكلهم عليه »

مستغوطا بمفوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه ، ان لم يستعن به على طاعة (١) والله أعلم .

فصل

فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه .

قال الامام احمد : التوكل عمل القلب . ومعنى ذلك انه عمل قلبي ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والادراكات . (ومن) الناس من يجهله من باب الممارف والعلوم فيقول : هو ندم القلب بكفاية الرب للعبد . (ومنهم) من يفسره بالسكون وغمود حركة القلب . فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب ، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقبله كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الاقدار . قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد . (ومنهم) من يفسره بالرضا . فيقول : هو الرضا بما قدور . قال بشر الحافي : يقول احدهم : توكلت على الله ، يكذب على الله ، او توكل على الله رضي بما فعل الله . ومثل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال اذا رضي بالله وكلا . (ومنهم) من يفسره باثمة بالله ، والطأينة اليه والسكون اليه . قال ابن عطاء : التوكل ان لا يظهر فيك نزاع الى الاسباب مع شدة فافتك اليها ، ولا تنال (٢) على حقيقة السكون الى الحق مع وقوفك عليها . وقال ذو النون : هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وانما يقوى العبد على التوكل اذا علم ان الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه . وقال بعضهم : التوكل التعلق بالله في كل حال . وقيل : التوكل ان ترد عليك موارد الفاقات ، فلا تسر الا الى من اليه الكفايات . وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض الى مالك الملوك . وقال ذو النون : خلع الارباب ، وقطع الاسباب - يريد قطعها من تعلق القلب بها ، لا من ملازمة الجوارح لها .

(ومنهم) من جملة من كتب من امرين او امور . فقال ابو سعيد الخراساني :

(١) في البنادية طاعته (٢) في البنادية - ولا نزول

التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب ، — يريد حركة ذاته في الاسباب بالظاهر والباطن — وسكون الى المسبب وركون اليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الاسباب الموصلة الى رضاه . وقال ابو تراب النخشي : هو طرح البدن في اليهودية ، وتماق القلب بالربوبية ، والعلمانية الى الكفاية . فان اعطي شكر ، وان منم صبر . فجعله مركبا من خمسة امور : اقيام بهركات اليهودية ، وتماق القلب تدبير الرب ، وسكونه الى قضائه وقدره ، وطمانينته بكفايته له ، وشكره اذا اعطي ، وصبره اذا منم . قال ابو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكمال الحقيقة كما وقع لابراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام « اما اليك فلا » لانه غائب عن نفسه بالله (١) لم ير مع الله غير الله .

واجمع اقوم على ان التوكل لا ينافي القيام بالاسباب ، فلا يصح التوكل الا مع القيام بها . والا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سبل بن عبد الله : من طمن في الحركة فقد طمن في السعة ، ومن طمن في التوكل فقد طمن في الايمان ، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سته . وهذا معنى قول ابي سعيد « هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب » وقول سهل ابن ابراهيم وارفع . وقيل : التوكل قطع علائق القلب بغير الله . ومثل سهل عن التوكل فقال : قلب عاش مع الله بلا علاقة . (٢) وقيل : التوكل هجر العلائق ، ومواصلة الحقائق . وقيل : التوكل ان يستوي عندك الاكثار والافلال . وهذا من وجباته وآثاره ، لانه (٣) حقيقة . وقيل : هو ترك كل سبب يوصل الى مسبب ، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك . وهذا صحيح من وجه ، باطل من وجه ، فترك الاسباب المأمور بها قاذح في التوكل ، وقد تولى الحق افعال العبد بها . وأما ترك الاسباب المباحة ، فان تركها لما هو أرجح منها . صامخا فمدوح ، والا فهو

(١) في البعدانية — لان علق نفسه بانه — (٢) هاتان الفقرتان سقطتا من نسخة فأتيتاهما من البعدانية (٣) وغيا — لا أنه —

مذموم . وقبل : هو إلقاء النفس في العبودية ، وإخراجها من الربوبية . يريد استرسالها مع الامر ، وبرأتها من حولها وقوتها ، وشهود ذلك بها ، بل بالرب وحده . (ومنهم) من قال : التوكل هو التسليم لامر الرب وقضائه (ومنهم) من قال : هو التفويض اليه في كل حال .

(ومنهم) من جعل التوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية . قال ابو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات - التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الاولياء ، والتفويض صفة الموحدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة الخاصة . التوكل صفة الانبياء ، والتسليم صفة ابراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين . هذا كله كلام الدقاق . ومعنى هذا التوكل اعتماد على الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه ، وإرادة وشائبة منازعة ، فاذا سلم اليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله . وحال المفوض فرق هذا ، فانه طالب يريد ممن فوض اليه ، ملتصق منه ان يتولى أموره ، فهو رضا واختيار ، وتسليم واعتماد ، فالتوكل يندرج في التسليم . وهو التسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

فصل

وحقيقة الامر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل الا بها . وكل اشار الى واحد من هذه الامور ، او اثنين او اكثر . فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته ، من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الامور الى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة اول درجة يضم بها العبد قدمه في مقام التوكل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ، ولا من القدريّة النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء (١) ولا

(١) في البداية « ما لم يشأ »

يستقيم أيضا من الجهة النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل الا من اهل الاثبات . فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يمل جزئيات العالم ؟ ولا هو فاعل باختياره ؟ ولا له ارادة ومشية ؟ ولا يقوم به صفة ؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم واعرف ، كان توكله اصح واقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

(الدرجة الثانية اثبات في الاسباب والاسباب) فان من نقاها فتوكله مدخول . وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي ان الاسباب يقدر في التوكل ، وأن نقيا كال (١) التوكل

فان ان نفاة الاسباب لا يستقيم لم توكل البتة ، لان التوكل من اقوى الاسباب في حصول التوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به فاذا اعتقد المبد أن توكله لم ينصبه الله سببا ، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء ، فان التوكل فيه المدعو بمحصله ان كان قدر (٢) حصل توكل او لم يتوكل ، دعا او لم يدع . وان لم يقدر لم يحصل ، توكل ايضا او ترك التوكل . وصرح هؤلاء ان التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لها الا ذلك ، ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته (٣) شيء مما قدر له . ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بدم المواخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة ، اذ هو مضمون الحصول .

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له (٤) لا يجوز الدعاء بهذا ، وإنما يجوز تلاوة الدعاء . قال — لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ، لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشك في وقوع ذلك — شك في خبر الله ، فانظر الى ما قاد انكار الاسباب من العظام ، وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء

(١) نص لسختنا — كلام التوكل — وكلام يحرف عن كمال القلب ، كما هو نص الحجازية ، والبغدادية « تمام التوكل » (٢) في البغدادية « قد قدر » (٣) لسختنا والحجازية « ما فاته » والبغدادية « ما فاته » (٤) نص الحجازية « في كتاب لا » وسقط من البغدادية كلمة « له »

به وبطلبه ، ولم ينزل المسلمون من عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم الى الآن يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات .

وجواب هذا الوهم الباطل ان يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع . وهو ان يكون قضى بمحصل الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لمحصل المطلوب ، وقضى الله بمحصله اذا فعل العبد سببه ، فاذا لم يأت بالسبب امتنع السبب . وهذا كما قضى بمحصل الولد اذا جاء مع الرجل من يجلها ، فاذا لم يجامع لم يخلق منه الولد . وقضى بمحصل الشبع اذا أكل ، والري اذا شرب ، فاذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو . وقضى بمحصل الحج والوصول الى مكة اذا سافر وركب الطريق ، فاذا جلس (١) في بيته لم يصل الى مكة (١) وقضى بدخول الجنة اذا أسلم وأتى بالاعمال الصالحة ، فاذا ترك الاسلام لم يدخلها أبدا (٢) وقضى بانصاح الطغام بإيقاد النار تحتهم . وقضى بطاوع الحبوب التي تزرع بشق الارض وإلقاء البذر فيها ، فما لم يأت (٣) بذلك لم يحصل الاغذية . فوزان ما قاله منكرو الاسباب ان يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ، ويقول : ان كان قضى لي وسبق في الازل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها ، فلا بد ان يصل ، ان تحركت أو سكنت ، تزوجت أو تركت ، سافرت أو قدمت ، وان لم يكن قضى لي لم يحصل لي ايضا ، فقلت أو تركت . فهل يمد أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم الا الله منه ؟ فان البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة . فالتوكل من أنظم الاسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من ناءم التوكل عدم الركون الى الاسباب ، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها . فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الاسباب الا على ساق التوكل ، ولا يقوم ساق التوكل الا على قدم العبودية . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) في البعدانية « فاذا جلس في بيته لم يصل الى مكة أبدا » (٢) حذف من البعدانية لفظ « أبدا » (٣) نص البعدانية فان لم يأت «

فصل

الدرجة الثالثة (رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل) (١) فانه لا يستقيم توكل العبد حتى يصبح له توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فاما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فان العبد متى التفت الى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فتمنع من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هاهنا ظن من ظن ان التوكل لا يصح الا برفض الاسباب ، وهذا حق ، لكن رفضها عن القلب لاغن الجوارح ، فتوكل لا يتم الا برفض الاسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعاً منها متعللاً بها . والله سبحانه أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الرابعة (اعتماد القلب على الله ، واستناده اليه ، وسكونه اليه) بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ، ولا سكون اليها ، بل يخام السكون اليها من قلبه ، ويلبسه السكون الى مسببها ، وعلى هذا (٢) انه لا يلبى باقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها واقبال ما يكره ، لان اعتماده على الله وسكونه اليه واستناده اليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فخاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به ، فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه اليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو بشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه منهم في هذه الحال لا معنى له . وكذلك من أعطاه مالك درهما فسرقة منه ، فقال له الملك : عندي ضمانته لا تنهم متى جئت لي أعطيتك من خزائني اضعافه . فاذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن اليه ، وعلم ان خزائنه مليئة بذلك - لم يحزنه فوته . وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بشدي أمه لا يعرف

(١) نسختنا والحجازية « توحيد التوكل » وسقط من البغدادية كلمة « توحيد »

(٢) نسختنا والحجازية « الى مسببها وعلى هذا » وفي البغدادية « الى مسببها »

غيره ، وليس في قلبه التفات الى غيره ، كما قل بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي اليه الا ندي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي الا الى ربه سبحانه .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الخامسة (حسن الظن بالله عز وجل) فلي قدر حسن ظلك بربك (١) ورجائك له يكون توكلك عليه . ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن فقال : التوكل حسن الظن بالله . والتحقيق ان حسن الظن به يدعو الى التوكل عليه ، اذ لا يتصور التوكل على من ساء (٢) ظلك به ، ولا التوكل على من لا نرجوه ، والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السادسة (استسلام القلب له) وانجذاب دواعيه كلها اليه ، وقطع منازعته (وبهذا فسر من قال : ان يكون العبد بين يدي الله كاليت بين يدي الغاسل يديه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنى قول بعضهم : التوكل اسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك . وهذا في غير باب الامر والنهي . بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله . فلا استسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده واتباعه له ، وترك منازعات نفسه وارادتها مع سيده . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السابعة (التفويض) وهو روح التوكل وابه وحقيقته ، وهو إلقاء اموره كلها الى الله ، ونزاعها به طلباً واختياراً ، لا كرها واضطراراً ، بل كتفويض ابن العاجز الضعيف المغلوب أموره (٣) الى ابيه العالم بشقيقته عليه ورحمته ، وتام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرى ان تدبيره له خير من تدبيره نفسه ، وقيامه بمصالحه وتوليها ، خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليها ، فلا يجد له اصلاح ولا أوفق من تفويضه أموره كلها الى ابيه ، وراحته من حمل كلفها (٤) رثقل حياها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض اليه وقدرته وشقيقته .

(١) في البعدادية « به (٢) في البعدادية « على من تسيه » (٣) كذا في نسخة وفي البعدادية ، وفي الحجازية قبل كلمة « اموره خربوشة يوشك ان يكون اصلاً » في « هو » على « تكون العبارة » المطلوب على اموره » وهي الصواب (٤) في البعدادية « كلها »